کاوش‌نامه (مجلهٔ علمی‌پژوهشی دانشکدهٔ ادبیات دانشگاه یزد)
سال هشتم شمارهٔ ١٤، بهار و تابستان ١٣٨٦

يقظة الشعور لدى الشعراء الخالدين

الشيرازيان والشابي نموذجاً*

الدكتور محمد علي آذرشب[1]

أستاذ في جامعة طهران

ملخّص

الشعور باختصار هو القوّة التي تحرّر الإنسان من الانشداد بما تنشَدّ إليه البهائم، وترفعه ليطوي مراحل كما له. وكل الخالدين في التاريخ من المصلحين وأصحاب الكلمة والفنانين والشعراء، إنّما خلدوا لأنهم ضربوا على وتر إيقاظ الشعور. وكلّما كان الشعور لدى هؤلاء الخالدين أقوى كان تأثيرهم في إيقاظ المتلقّين أكثر وكان خلودهم أبقى وأدوم.

والشعراء من أقدر الناس على إيقاظ الشعور، لأنهم يستخدمون "الكلمة" و"الموسيقى". لكنّ العظام منهم يفوقون الباقين بقوّة تأثيرهم على الإيقاظ، لما في صدورهم من لهيب المشاعر التي تتحول إلى كلمات جزلة وأنغام عذبة تدخل القلوب وتثير العواطف والشعور.

قوّة الشعر إذن ليست في قديمه أو حديثه وليست في عربيّه أو فارسيّه، إنما في حرارة لهيبه. وهذا المقال يتناول من دائرة شعراء الفارسية القدماء حافظ وسعدي، ومن دائرة شعراء العربية المعاصرين أبا القاسم الشابي. ورغم ما بين الشيرازيين والشابي من فواصل الزمان والمكان واللغة فهم ينطقون جميعا بلغة واحدة.. لغة يقظة الشعور.

الكلمات الأساسية: يقظة الشعور، سعدي، حافظ، الشابي.

---

* تاريخ دريافت مقاله: ٨٦/٤/٣٠ تاريخ پذيرش نهايي: ٨٦/٩/٢٠

١ – نشاني پست الكترونيكي: mohammadali@azarshab.com

معنى يقظة الشعور:

يقظة الشعور تعني تحرّر الإنسان من ذاتيته وأنانيته لينطلق في حركة تكامليّة يتحدّى فيها العوائق والعقبات ليسجّل الانتصارات في حقل خلق مجتمع أفضل.

كل الأديان دعت إلى تحقيق هذا الهدف الكبير.. لأن فيه إحياءاً للإنسان، وهل الدين إلاّ الإحياء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

وكان هذا أيضا هدف المصلحين والإحيائيين على مرّ التاريخ.

وإذا أردنا بيان هذه الحقيقة بلغة كتاب الله العزيز فإن الإنسان بالتعبير القرآني مخلوق من "طين" يرمز إلى الجانب الهابط من الموجود البشري ومن نفخة روح ربّ العالمين التي ترمز إلى الجانب المتسامي من الإنسان والى قدرة حركته التكاملية نحو أبعاد لا نهائية.

وفي الإنسان نوازع تشدّه إلى الطين ومهمة الرسالة السماوية أن تنزع الإنسانَ من انشدادات الطين لتحلّق به إلى آفاق رحبة يرى فيها حقيقة إنسانيته ويكتسب فيها معرفة بحقيقة الحياة وحقيقة الجمال والكمال.

إيقاظ الشعور بهذا المفهوم يعني إذكاء الجانب المتسامي من الإنسان وتحريكه نحو الآفاق الرحبة من المعرفة والكمال والجمال.

يقظة الشعور عند سعدي

سعدي الشيرازي ولد سنة ٦٠٦ هجرية بمدينة شيراز، وعاش فترة انحطاط الحالة الشعورية لدى الأمة الإسلامية بسبب ما دبّ فيها من ضعف أدّى إلى اجتياح المغول وسقوط الخلافة العبّاسيّة وما تبع ذلك عادة من هزيمة نفسية وتراجع في المعنويات وارتخاء في العزائم والهمم.

فنهض هذا الرجل ليعزف على أوتار استنهاض شعور الأمة، وسلك المحاور التالية:

١ــ محور الانشداد بالإنسانية جمعاء.

خطاب سعدي في هذا المحور يسعى إلى كسر كل الأطر التي تحدّ الإنسان من الانفتاح على أخيه الإنسان، انطلاقاً من مفهوم "التعارف" الذي دعا إليه القرآن الكريم. ومن مفهوم وحدة المجتمع الإنساني. يقول: في أبيات تتصدّر اليوم واجهة منظمة الأمم المتحدة:

بنی آدم اعضای یکدیگرند
که در آفرینش زیک گوهرند
چو عضوی به درد آورد روزگار
دگر عضوها را نماند قرار
تو کز محنت دیگران بی غمی
نشاید که نامت نهند آدمی

(سعدي، ۱۳۷۰، ص ۲۵)

أي:

"بنو آدم جسدٌ واحدُ
إلى عنصر واحدٍ عائدُ
إذا مسّ عضواً ألیم السقام
فسائر أعضائه لا تنام
إذا أنت للناس لم تألم
فکیف تسمیت بالآدمي"؟!

ويرفض سعدي أن يعيش الإنسان المؤمن في عزلة عن الناس وأن يغرق في عبادته دون تقديم خدمة لبني البشر يقول:

صاحب دلی به مدرسه آمد زخانقاه
بشکست عهد صحبت اهل طریق را
گفتم میان عالم و عابد چه فرق بود
تا اختیار کردی از آن، این فریق را
گفت آن گلیم خویش به در می‌برد ز موج
وین سعی می کند که بگیرد غریق را

(همان، صص۸۰-۸۱)

أي: "عارف جاء من الخانقاه إلى المدرسة/ وقطع عهد الصحبة مع أهل الطريقة / قلت: ماالفرق بين العالم والعابد /حتى جعلك تختار هذا الطريق؟ / قال: ذاك ينقذ سجادته من الموج وهذا يسعى للأخذ بيد الغريق ".

٢- محور الارتباط بالأمة الإسلاميّة الكبرى

وهو هدف عظيم يعلو على الأطر الضيقة الإقليمية والقومية ويخلق في الإنسان روح الانتماء إلى الأمة الإسلامية جمعاء.

ولتحقيقه سلك نهج الامتزاج اللغوي بين العربية والفارسية، وطاف في العالم العربي والإسلامي ليفتح أمام الإيرانيين آفاقاً رحبة من الحياة الإسلامية في البلدان الأخرى.

بالنسبة إلى الامتزاج اللغوي فان تراث سعدي مزج في مؤلفاته بين العربية والفارسية بحيث لا يمكن أن يطالعها أحد إلا أن يكون ملمّاً باللغتين معاً. و لم يكن ذلك مصادفة، بل تعمّد إلى ذلك – فيما أعتقد – ليثبت أن الامتزاج هذا يبلغ باللغة إلى ذروة الكمال.

كثرة التضمينات القرآنية وكثرة العبارات والأبيات العربية التي تتخلّل نثره وتُلمّع شعره، والقصائد العربية التي تحتويها كلياته تثبت أنه أراد التوفيق بين اللغتين العربية والفارسية ليخرج بنصوص تجمع بين الاثنين في إطار جميل خلاّب بعيد عن أي تكلّف.

في كتابه "گلستان" على سبيل المثال ترى في الصفحة الأولى نثراً مليئاً بالمفردات العربية: مِنّة.. عزّ وجلّ... طاعة.. موجب.. قرب.. شكر.. مزيد.. نعمة.. نَفَس.. ممدّ.. حياة.. مفرّح.. ذات.. واجب.. تقصير.. عذر.. رحمة.. حساب.. ناموس.. فاحش.. وظيفة.. خطأ.. كريم.. خزانة.. غيب..وظيفة.. محروم.. نَظَر.. فرّاش.. فرش.. داية.. بنات.. نبات... خلعة.. قباء.. ورق.. أطفال.. قدوم.. موسم.. ربيع..و...

وترى في الصفحة نفسها قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾.. وهكذا تستمر الصفحات على هذا المنوال تتخللها أبيات بالعربية مشفوعة بأبيات في الفارسية.

والعربية في كليات سعدي نراها:

ـــ في المفردات العربية الكثيرة في نثره.

ـــ وفي أبياته العربية المتناثرة خلال نثره.

ـــ وفي قصائده العربية التي أفرد لها المحققون قسماً خاصاً.

تبدأ أولها بقوله:

الحمد لله رب العالمين على

ما درّ من نعمة عزّ اسمه وعلا

(سعدي، ١٣٧٠، ص ٧٣)

وهي في ذكر الله ونِعَمه.

والثانية في رثاء بغداد والخليفة المعتصم بالله العبّاسي بعد هجوم المغول ومطلعها:

حبستُ بجفنيَّ المدامـــع لا تجـــــري

فلما طغى المـــاء اســـتطال علـــى الـــسكر

(سعدى، ۱۳۷۰، صص ۷۳ و ۷۷)

وتزيد على تسعين بيتاً.

والثالثة في مدح نور الدين بن صياد ومطلعها:

مـــادام ينـــسرح الغـــزلان في الـــوادي

احـــذر يفوتـــك صـــيد يـــا ابـــن صـــيّاد

(همان، صص ۷۷-۷۸)

عدد هذه القصائد العربية يربو على العشرين، وأكثرها في الغزل كما ذكرنا، ومن غزلـــه العـــربي قوله:

يا نديمي قم تنبّه واسقني واســقِ النـــدامى

اسقياني وهدير الرعد قـــد أبكـــى الغمامـــا

وشفا الأزهار تفترّ من الـــضحك ابتـــساما

قل لمن عيّر أهـــل الحـــبّ بالجهـــل ولامـــا

لا عرفت الحبّ هيهات ولا ذقـــــــــت الغرامـــا

(همان، ص ۸۷)

كمانرى العربية في ملمّعاته نظير قوله:

وقتـــها يكـــدم برآســـودي تـــنم[1]

قـــال مـــولائي لطـــرفي لا تـــنَمْ

اســـــقياني ودعـــــاني أفتـــــضحْ عـــشق ومـــستوري نيـــاميزد بهـــم[٢]

مـــا بمـــسكيني ســـلاح انـــداختيم[٣] لا تحلّـــوا قتـــلَ مـــن ألقـــي الـــسّلَم

قـــد ملكـــت القلـــب ملكـــاً دائمـــاً خـــواهي اكنون عدل كن خواهي ســـتم[٤]

(سعدي، ١٣٧٠، ص ٣٣٧)

وليست مظاهر الوحدة الحضارية عند سعدي متجلية في الامتزاج اللغوي بـين العربيـة والفارسـية فحسب، بل أيضاً فيما يعرضه من قصص حقيقية أو رمزية دارت في بلاد عربية أو غير عربية أحيانـاً من العالم الإسلامي.

فتجواله في العراق والشام ومصر والجزيرة العربية أمدّه بخصب حضاري في شعره ونثره. في أحاديثه عن الشام مثلاً يتكرر ذكر دمشق والقدس وحلب وطرابلس، ويذكر عنها قصصاً فيها عبرة وتذكير.

من ذلك قصة أسْرِهِ في الشام يرويها على طريقته في السرد. يذكر القصة منثورة ثم يقطـّع فقراتها بقطعة شعرية أو بيت ، وفيها من العبر الكبيرة المرتبطة بواقعنا الراهن، يقول: (سـعدي الـشيرازي، ١٤٢٥هـ، ص ١٤٢-١٤٣)

"ذات يومٍ بدت لي ملالة من صحبة إخواني الدمشقيين، فهمت علي وجهي في صـحراء القـدس واستأنست بالحيوانات، إلى وقعت يوماً في اسرالافرنج قيد الفرنج (ويبدو أنه يـشير إلى أسـره بيـد المهاجمين الصليبيين على الأراضي الفلسطينية يومئذ) وسخـّروني في عمل الطين مع اليهود في خنـدق طرابلس، حتى مرّ بي واحد من رؤساء حلب كان له بي سابق معرفة، وعرفني فقال: أي فلان! ما هذه الحال؟

(قطعة شعرية)

" كنت أفرّ من الناس إلى الجبل والصحراء / لأنه لم يكن لي عن الله انشغال بالغير / فقس في أيـة حالة أكون حينما / يتحتّم عليّ أن أعمل في حظيرة اللئام".

لإن يكن الرجل مقيّـداً عنـد الأصـدقاء
خير من أن يكون في البستان مـع الغربـاء

* * *

"فأشفق على حالي التّعسة، وخلّصني من القيد بعشرة دنانير، وأخذني إلى حلب، وزوّجني ابنته، بصداق قدره مائة دينار، بعد أيامٍ، أخَذَت ابنته في المشاكسة والعصيان وطول اللسان، وكانت تنغّص عيشي".

«المرأة الخبيثة في بيت الرجل الطيب
جحيم في هذا العالم أيضاً

فحذار من قرين السوء حذار،
(وقنا ربّنا عذاب النار)»

* * *

"فأطالت مرّة لسان التعنّت وكانت تقول: ألست أنت الذي خلّصك أبي من قيد الافرنج بعشرة دنانير؟ فقلت بلى! أنا ذاك الذي خلصني أبوك من قيد الفرنج بعشرة دنانير وجعلني أسيراً في يدك بمائة دينار".

«سمعت أن رجلاً كبيراً خلّص خروفاً من فم ذئب
وفي وقت الليل أمرّ السكين على حلقه"

روح الخروف منه قائلة:
لقد اختطفتني من براثن الذئب
فلما نظرتُ، كنت أنت ذئبي في النهاية

* * *

وفي القصة بعض مضامين إضافية ممتعه و هي إلى السرد الأدبي الممتع:

١ــ أن الإنسان إذا ملّ المقام في مكان فعليه أن ينتقل منه، وهي دعوة إلى عدم الخضوع للعادة، وعدم الخضوع للعادة من أهم محاور دعوة العرفاء.

٢ــ مقارنة بين العيش مع البشر العاديين (مردم)، وهم الدمشقيون، والعيش مع البشر اللئام (نامردم)، وهم الافرنج الغزاة. وتأكيده على أن الإنسان إذا ملّ المقام مع أهله فلابدّ أن ينتقّل الي بين أهل آخرين من أبناء أمته لا أن يوقع نفسه في ورطة اللئام من أعداء أمته. فقَيدُ الأصدقاء أفضل من

بستان الغرباء.

٣ــ إشارة إلى إمكان أن يلقى الإنسان العنت من الاقرباء الجهّال المشاكسين، حتى ولو كان ذلك القريب زوجه.

٤ــ إشارة إلى أن المتظاهرين بالإنقاذ والتحرير قد يكونون هم أنفسهم الجزّارين.

٣- محور الدعوة إلى العزّة

الذلّ من أهم عوامل خمود الشعور، والعزّة من أهمّ حوافز الإيقاظ.

المجتمع البشري حيّ بعزّته فإذا ذلّ مات.. هذه حقيقة تؤكدها كل الدراسات التاريخية والاجتماعية، وتثبتها حقائق الواقع الراهن، من هنا فإن كلّ الأنبياء والمصلحين دعوا إلى صيانة عزّة الإنسان وكرامته على ظهر الأرض، كي يستشعر الحياة، ويسير على طريق استخلاف الله في الأرض وما يتطلبه هذا الاستخلاف من إبداع وابتكار واستثمار لمواهب الطبيعة وكنوزها.

وسعدي بأسلوبه الأدبي الرائع جَهَد لأن يحافظ على روح العزّة في مجتمعه بعد أن تكالبت عليه أنواع الظروف لإذلاله.

وأهم وَتَر ضرب عليه لصيانة روح العزّة في المجتمع هو إنقاذ الناس من التهافت على الدنيا كتهافت الذباب على قطعة الحلوى. وإيقاظ العقول والقلوب على حقيقة هذه الحياة التي لا تبقى لأحد. وهذا لا يعني أنه دعا إلى ترك الدنيا، بل دعا إلى ممارسة الحياة ممارسة مترفعة عن الدنايا وعن الذاتية والأنانية، وعن الحرص والطمع ، وعن كل العوامل التي تخلق السلبيات في العلاقات الاجتماعية، وتحول دون تفتح مواهب الإنسان وكفاءاته ودون العطاء الاجتماعي العام. دعا إلى أن لا يتحول الإنسان إلى دودة تعيش في الظلام، لا تعرف إلا ما حولها، ولا تعمل إلا لإشباع نهمها الغريزي.

نراه في حكاياته بكتاب گلستان يخاطب النفس الإنسانية بأساليب مختلفة لينتشلها من وهدة الهبوط ويرفعها إلى الارتباط بالكون الفسيح وخالقه.

يقول في الباب السابع: "سمعت أحداً من الشيوخ المربين يقول لمريد: أي بني! لو كان ارتباط ابن آدم بالرازق بقدر ارتباطه بالرزق لارتقى على الملائكة في المقام".

وفي هذا المضمار ينشد أحياناً بيتاً بالعربية:

بـئس المطـاعم حـينَ الـذلِ يكـسبها
القِـدر منتـصب والقَـدرُ مخفـوضُ

و بالفارسية:

هركـه نـان از عمـل خـويش خـورد
منّـت از حاتـم طائی نبـرد

أي:

"كل من يأكل الخبز من عمله / لا يتحمل المنّة حتى من حاتم الطائي".

و يزيد:

"إذا أردت الغنى، لا تطلب غير القناعة / فإنها دولة هنيّة/ إذا نثر الغني الذهب بحجره / فحـذار أن تنظر إلى نواله/ فقد سمعت كثيراً من الأكابر (يقولون) / إن صبر الفقير خير من بذل الغني".

وفي كتابه بوستان خصص باباً للقناعة يدعو إليه بقوله مثلاً:

ـ "اقنعي أيتها النفس بالقليل / حتى تري السلطان والفقير متساويين".

ـ "وابغ جوفاً طاهراً أينما تذهب / فإن البطن لن يمـلأه إلا التـراب".

ـ "والنفس الأمارة تـُحيل عزّ المرء ذلاً / فلا تطعها إن كنـت عاقـلاً".

وفي قطعاته الشعرية يكثر من التأكيد علـى عـزّة الـنفس، وفي إحـداها يـصوّر أصـدقاءه يقولون له:

"لماذا أنت يا سعدي لا تتحرك للحصول على المال والمتاع؟ / فأنت تتربع على عرش الشعر، فلماذا تعيش كما يعيش المرتاضون؟/ لو مدحت قليلاً فستنال الحظوة/ وصاحب الفن إن كان معـدماً فهـو مغبون، ولا يقدر أن يكسب ودّ الإخوان".

و يجيبهم:

"لا أستطيع أن أرفع حاجتي إلى هذا المالك وذاك الثري/ فهذا من فعل المتكدين/ لو طُلب مني أن آخذ إبرة من اللئام/ لتحولت هذه الإبرة إلى إبر على جلدي مثل القنفذ/ لقد قلتَ: إن رضا الصديق لا يتيسّر إلا بالمال/ وهذا أيضاً خلاف المعرفة والرأي الصحيح/ فألف كتر ثمين يعادل حبّة من الفن/ والمنّة

بعد ذلك على المعطي، والحيف عَلَيّ.

٤- تربية الذوق الجمالي

حين يخمد الشعور يرسف الإنسان في أغلال الطين، فلا يستطيع أن ينطلق في رحاب الكون الفسيح، ولا يستطيع أن يرى الجمال، لأن الجمال قيمة إنسانية لا يراها الاّ المتحررون.

وسعدي من المتحررين ومن دعاة التحرر، بعبارة أخرى إنه عاشق ومن الدعاة إلى العشق، فالعشق هو الهيام بالجمال، والعاشق بهذا المعنى هو الذي يغلي صدره بالمشاعر النبيلة التي تدفعه إلى حبّ الجمال والكمال، من هنا فالعاشق لا يستقرّ ولا يخنع ولا يستسلم للظروف، بل يتحرك رغم كل الصعاب على طريق الجمال.

وعلى العكس من العاشق، الإنسان المتبلّد الإحساس، الضعيف الهمّة، الذي لا يهتزّ أمام السحر ولا يطرب أمام الجمال.

وتربية الذوق الجمالي هدف كل الأنبياء والمصلحين، لأنه يدفع الإنسان للحركة نحو الجمال المطلق ويجعل الكائن البشري مُعرضاً عن القبائح والسيئات.

نحن اليوم بأمس الحاجة لتربية الذوق الجمالي لشبابنا لكي يطلبوا الجمال في كل مجالات حياتهم، ويعرضوا عن القبيح في المظهر والسلوك. والذوق الجمالي يبعد الشباب عن الوقوع في مستنقع الرذيلة ، لأن الشاب – إن تحلّى بالذوق الجمالي – يستطيع أن يفهم قبح الرذائل، ويفهم الفرق بين الجمال الحقيقي والجمال السرابي الخدّاع.

وهي مسألة نحتاج إلى الوقوف عندها طويلاً، لكنّا نكتفي بهذه الإشارة ونعود إلى سعدي الشيرازي الذي سعى فيما سعى إلى أن يستثير الذوق الجمالي الفطري في مجتمعه، الذي تكالبت فيه ظروف سحق هذا الذوق وإماتته، بفعل الأوضاع الاجتماعية السيئة.

فهو أوّلا يكرّر الدعوة إلى التأمل في مظاهر الطبيعة ومافيها من جلال وجمال وأسرار، والى التعمّق بما وراء الظواهر من علاقات تربط كل الكون بهدف تكاملي واحد. يقول:

بذكرش هرچه بيني در خروش است
دلى داند درين معنى كه گوش است

نه بلبل بر گلش تسبیح خوان است
که هر خاری به تسبیحش زبان است

أي:

"كل ماتراه يموج بذكره/ لا يفهم ذلك إلا القلب السميع/ ليس البلبل يسبّح على وردته بحمدالله فحسب/ بل كل شوكةٍ لسانٌ ينطق بتسبيحه".

والقلب الذي يستطيع أن يتفهّم حقائق الأشياء هو القلب الذي يخفق بالعشق لا القلب المتبلّد الجامد. كلّ مظاهر الطبيعة تدعو الإنسان إلى أن ينفتح قلبه وينصقل ذوقه، بل لقد عُرِف عند العرب عن الجَمَل بأنه يطرب للصوت الجميل، فما بال الإنسان لا يهزّه الجمال؟!

يقول سعدي:

دانی چه گفت مرا آن بلبل سحری؟
تو خود چه آدمی ای کز عشق بی خبری

اشتر به شعر عرب در حالت است وطرب
گر ذوق نیست تو را کژ طبع جانوری

أي:

"أتدري ماذا قال لي البلبل في السحر؟ / أيُّ إنسان أنت يامن لا معرفة لك بالعشق؟!/ الجمل في الشعر العربي له ذوق وطرب/ وإذا لم يكن لك ذوق فأنت حيوان معوجّ الطبع". (سعدي، ۱۳۷۰، ص۶۹)

ثم يردف سعدي هذين البيتين ببيت عربي فيقول:

وعند هبوب الناشرات على الحمى
تميل غصون البان لا الحجر الصلد

يضع سعدي مواصفات للعاشقين منها أنهم لا يملّون الطلب والبحث للوصول إلى الجمال، يقول:

چو یعقوبم اردیده گردد سپید
نبُرّم ز دیدار یوسف امید

طلبكار بايـد صـبور وحمـــــــول

كـــــه نشنيده ام كيمياگـــر ملـول

چه زرها بخـاك سـيه در كنـــــد

كه باشـد كـه روزى مـسى زر كنـد

(الهنداوي، ١٩٨١، ص٤٠٠)

أي:

"فلئن ابيضّت عيناي، كما ابيضّت عينا يعقوب / فلن أقطع الأمل، من رؤيـة يوسـف/ ولابـدّ للطالب أن يكون صبوراً قادراً على التحمّل / إذ لم يُسمع أن كيماوياً (ساعياً للحصول على الـذهب من معادن أخرى) أصبح ملولاً / فما أكثر ما ينفقه من مال وذهب / لعلّه يوماً يستطيع أن يحوّل نحاساً إلى ذهب".

ومن صفات العاشقين أنهم يشعرون – رغم ثقل أعباء العشق – بالبهجة والسرور والحبور.

وسعدي مبتهج دائماً، لأنه يعيش في عالم مبتهج بخالقه، و هو عاشق لكل العالم، لأن كل العـالم من فيض المحبوب. يقول:

به جهان خرّم از آنم كه جهان خرّم از اوست

عـاشقم بر همه عالم كه همه عالم از اوست

أي:

"أنا مبتهج بالكون لأن الكون مبتهج به/ أنا عاشق لكل العالم لأن جميع العالم منه".

وما أجمل هذا الارتباط بالكون! إنه ارتباط يشرح الصدر، ويبارك العمر ويزكّيه ويرفعه، ويجعـل العلاقة بين الإنسان والكون علاقة العاشق بالمعشوق.

ويفصل سعدي بين حديث العشق وحديث العقل، فالعشق حديث تضحية وفداء وتحمّل ومعانـاة وإيثار، وحديث العقل حديث مصلحة ومنفعة واستئثار وطلب السلامة. يقول سعدي:

دردي است درد عشق كه هيچش طبيب نيست

گر دردمنـد عشق بنالـد غريب نيـست

دانند عاقـلان كـه مجانيـن عـشـق را

پـــرواي قول ناصـح و پند اديب نيست

أي:

"ما أشدّ ألم العشق الذي ليس له طبيب / وإذا ناح المصاب بالعشق فليس ذلك بغريب / يعلم العقلاء أن مجانين العشق / لايتأثرون بقول ناصح وموعظة أديب".

وهذا لا يعني أن سعدي يدعو إلى ترك العقل، بل يرى أن عالم العشق غير عالم العقل، عالم العشق يتجاوز الذات، وعالم العقل يكرّس الذات. ولا نبالغ إذا قلنا أن كل الذين بذلوا جهودهم من أجل خدمة البشرية في أي مجال من المجالات هم عاشقون. والعرفاء يرون أن العشق هي النار التي تحرّك البشرية، وهو طاقتها المحركة، ويعبّرون عن العقل بأنه الدخان المصاحب للنار. يقول العطار في منطق الطير:

عشق جانان آتش است وعقل دود

عشق چون آمد گريزد عقل زود

أي:

"عشق الحبيب نار والعقل دخان / وحين يحلّ العشق سرعان ما يهرب العقل".

ويقول سعدي:

حديث عقل در ايام پادشاهى عشق

چنان شده است كه فرمان حاكم معزول

أي:

"حديث العقل في أيام سلطنة العشق / أصبح وكأنه امر الحاكم المعزول"

منطق العاشقين غير منطق الأنانيين. والعرفاء يرون أن العاشقين هم أصحاب الرأي الصائب والنظر الثاقب. يقول سعدي:

هر كسى را نتوان‌گفت كه صاحب‌نظر است

عشق‌بازى دگر و نفس‌پرستى دگر است

أي: "لا يمكن أن يقال عن أي شخص بأنه صاحب الرأي/ فالسير على طريق العشق شيء وعبادة

النفس شيء آخر".

سعدي يضع العاشق مقابل الأناني وعابد الذات، وبذلك يدعو إلى أن يكون الإنسان عاشقاً ينشد الجمال بعيداً عن الذاتية والأنانية، مندفعاً دائماً ليقدم الخير والعطاء للبشرية جمعاء.

يقظة الشعور عند حافظ

مشروع إيقاظ الشعور عند حافظ يتلخّص في إثارة أشواق الجمال لدى الإنسان وهذه الأشـــواق تدفعه طبعاً إلى التحرر من الذاتية والاتجاه نحو الكمال.

ونقف عند بعض معالم هذا المشروع من خلال ديوانه الذي يسمى بالفارسية ديوان الغزليات.

أول غزلياته يبدأها بشطر بيت عربي يدعو فيه الساقي أن يناوله كأساً كي يخفّف عنه أثقال همـــوم العشق الذي بدا في أوله سهلاً، لكنّ ثقل أعبائه بدت له على مرّ الأيام: (والخمر على لسان العاشقين تعني وسيلة خروج الإنسان من ذاتيته).

ألا يا أيهـــا الـــساقي أدر كأســـاً وناولهـــا

كه عشق آسان نمود اول ولى افتاد مشكلهـــا

أي: "فالعشق بدا في أوله سهلاً ثم وقعت المشاكل"

وفي بيت آخر من هذه القطعه يتحدث عن نفسه التي لا تدعه يستقرّ لأن شوط العمر قصير:

مرا در منزل جانان چه امن عيش چون هر دَم

جَرَس فرياد مى‌دارد كه بربنديـــد محملـــها

أي : "أيُّ أمن عيش لي في منزل الحبيب،إذ في كل لحظة/ يدق الجرس أن ارزمـــوا المحامل".

وفي بيت آخر منها يشير إلى مايحيط به من أهوال تعبّر عن الهموم الكبيرة التي يتحملها، ويـــرى أن الذين يخلدون إلى الراحة ودعة العيش لا يفهمون ما يثقل صدور العاشقين:

شبِ تاريك وبيم موج و گردابى چنين هايل

كجـــا دانند حال ما ســـبكباران ســـاحلها

أي:

"ليل مظلم وموج مخيف، ولُجّة هائلة/ أني لسكان السواحل أن يعرفوا حالنا".

ثم يدعونفسه لأن تسير على طريق العشق إذا أرادت أن تكون حاضرةً، أي إذا أرادت أن تكون ذات مكانة في ساحة الإنسانية المتكاملة:

حضوری گر همی‌خواهی ازاوغایب مشوحافظ
متی ما تلق من تهوی دع الدنیا وأهلها

أي: "إذا أردت حضوراً مستمراً فلا تَغِب عنه يا حافظ / متى ماتلق من تهوى دعِ الدنيا وأهلها".

ويلاحظ أن البيت الأول الذي يشير فيه إلى سهولة العشق في بداية مراحله، وظهور مشاكله وثقل أعبائه في مراحل تالية، له نظائر في الغزل العربي، كما يقول الشاعر:

تولّع بالعشق حتى عشق
فلما استقلّ به لم يُطق

رأى لجّة ظنّها موجة
فلمّا تمكّن منها غرق

نار العشق

النار والنور من رموز الطاقة المحركة والضياء في الأدب. وعن ارتباط النار بالعشق يقول حافظ:

در ازل پرتو حسنت زتجلّی دم زد
عشق پیدا شد وآتش به همه عالم زد

أي: "نور جمالك تجلّى منذ الأزل/ فظهر العشق وأضرم في النّار العالم".

فالجمال هو الذي خلق العشق وأضرم النار في العالم. والبرق الذي سطع من منزل ليلى أضرم النار في بيدر مجنون:

برقی از منزل لیلی بدرخشید سحر
وه که با خرمَن مجنون دل افگار چه کرد

أي: "لقد سطع من منزل ليلى في السحر برق/ آه، ماذا فَعَل ببيدر المجنون المسكين".

أما نار الوادي المقدس فلم تبعث البهجة في قلب حافظ فحسب، بل إن موسى (ع) جاء إلى ذلك المكان على أمل الحصول على قبس:

زآتش وادى ايمن نـــه مـــنم خُـــرّم وبـــس
موسى آنجا به اميد قبـــسى مـــى آيـــــد

أي:"لستُ وحدي جذلاناً من الوادي الأيمن/ موسى (أيضاً) جاء على أمل قبس إلى ذلك الوادي".

العشق ولوم اللائمين

الحديث عن اللائمين يردده جميع العشّاق، ويكررون القول بأنهم لا يبالون بهؤلاء لأنهم لا يعرفون معنى العشق و لم يذوقوه ويقصدون بذلك أنّ العاشق الذي يسير على طريق نكران الذات سوف يواجه لوم الذاتيين وسخرية الأنانيين، وعليه أن لا يبالي بهؤلاء الغافلين: والحديث عن اللائمين نراه عند حافظ إذ يقول:

به رغم مُدَّعيان كه منع عـــشق كننـــــد
جمال چهرة تو حُجّـــت موجّـــه ماســـت

أي:

رغم المدعين الذين يمنعون العشق/ جمال وجهك حجتنا الوجيهه لما نحن فيه

فالجمال حجة كافية للعشق رغم لوم اللائمين.

ويرى أن الزاهد المتمسك بالمظاهر لا يفهم حال العشاق فله الحق فيما يقول:

زاهد ظاهر پرست از حال ما آگاه نيـــست
در حق ما هرچه گويد جاى هيچ اكراه نيست

أي: "الـــــزاهد المتظـــاهر لا يعلم بحالنـــا/ فكلّ ما يقوله بحقّنا لا يسيء إلينـــا".

وللعشاق ألف شغل في كل خصلة من شَعرِ الحبيب فأين العشاق من اللائمين الفارغين؟!

هر سر موی مرا با تو هزاران کار است
ما کجاییم وملامتگر بیکار کجاست

أي: "لنا ألف شغل في كلّ خصلة من شعرك / أين نحن من هذا اللائم العاطل؟!"

الخروج من الذاتية

وللتفريق بين العاشق الحقيقي وبين طالب الشهوة يرى حافظ أن العاشق لابد أولاً أن يتحرر من الذاتية، وإذا كان حبيس ذاته فهو لا يفهم أبداً العشق وأسراره:

با مدّعی مگویید اسرار عشق ومستی
تا بی خبر نمیرد در درد وخود پرستی

أي: "لاتتحدثوا مع المدعي عن أسرار العشق / كي يموت جاهلاً في الألم وعبادة الذات".

ويفدي حافظ نفسه لمن بلغت همته أن يتحرر من كل مالَهُ طابع انشداد أرضي:

غلام همّت آنم که زیر چرخ کبود
زهر چه رنگ تعلّق پذیرد آزاد است

أي:
"أناغلام همّة ذاك الذي تحت السماء الزرقاء / قد تحرر من كلّ ماله لون التعلق بالارض".

وطريق منزل ليلى محفوف بالأخطار والشرط الأول للسير على هذا الطريق أن تكون مجنوناً، أي عاشقاً حقيقياً متحرراً من ذاته:

در ره منزل لیلی که خطرهاست در آن
شرط اوّل قدم آن است که مجنون باشی

أي: "في طريق منزل ليلى المحفوف بالاخطار/ الشرط الأول لوضع قدمك في الطريق أن تكون مجنوناً ".

و كل معبود تتجه إليه خارج ذاتك فهو أفضل من عبادة ذاتك:

گر خود بُتی ببینی مشغول کـــار او شـــو
هر قبله یی که بینی بهتـــر ز خـــود پرســـتی

أي: "إذا رأيت صنماً فاشتغـــــل بـــه/ كل قبلة تتجه إليها أفضل من عبادة الذات".
والشمعة التي تحترق لتضيء الطريق للآخرين هي التي تعرف أسرار العـــشق، لا عبّـــاد الأهـــواء والشهوات:

خواهی که روشنت شود اسرار درد عشق
از شمع پـــُرس قصـــــــه زباد هوا مپـــرس

أي: "إذا أردت أن تتضح لك أسرار العشـــــق /فاسأل القصة من الشمعة لامن تياراهوى".

العشق لا يفهمه إلا الخواص

و ليس الخواص هم الذين كدّسوا المعلومات، بل الذين طهّروا قلوبهم من كل ما سوى العـــشق، وهؤلاء هم الذين يعرفون أسرار العشق، والمدّعون لا يستطيعون أن يقفوا على أسراره، بـــل إذا أرادوا التفرج على ساحة الأسرار تصدهم يد الغيب عن ذلك:

مدّعی خواست که آید بـــه تمـــاشاگه راز
دســـــت غیب آمـــد و برسینه نـــامحرم زد

أي: "أراد المدّعـــــــي أن يأتي ليتفرج على الأسرار/ فجـــاءت يدُ الغيب وضـــربت علـــى صدرالأجنبي".

والعشق ليس من مقولات علم الفقه، ولذلك لا يفهم مسائل العشق إلاّ العاشقون:

حـــلاج برسر دار این نکته خوش ســـــرآید
از شافعـــی نپرسید امثال ایـــــن مسایـــل

أي:

"الحلاج على المشنقة، قال بشكل رائع هذه النكتة/ لا تسألوا الشافعي عن أمثال هذه المسائـــــــل".

وأصحاب القلوب هم الذين يأنسون بالحبيب، وغيرهم لا يعرف هذا الأنس بل ينكره.

هر كه شد مَحْرَم دل در حَـــرَم يار بمانـــد
و آن كه ايـــن كار ندانست در انكار بمانـــد

أي: "من أصبح مَحرَماً للقلب بقي في حريم الحبيب/ ومَن لـــم يعرف كيف يكون محرماً بقي في الإنكار".

وحديث العشق حديث النفس والقلب لا حديث المدرسة والدراسة:

مباحثی كه در آن حلقه جنون می رفـــت
وراى مـــدرسه وقـــال وقيل مسأله بـــود

أي: "المباحث التي كانت تدور في حلقة الجنون تلك/هي ما وراء المدرسة و ما وراء القيل والقال".

العشق فطرة وحياة

النّاس منجذبون فطرياً لعشق الجمال، سواء منهم من نهج طريق العقل أو نهج طريق العرفان. وكلّ أماكن العبادة يعبّر فيها المؤمنون عن انشدادهم بالعشق.

همه كس طالب يارند چه هشيار وچه مست
همه‌جا خانه عشق است چه مسجد چه كنشت

أي: "كل‌الناس يطلبون‌المعشوق، الصاحي منهم والثمل/ وكل مكان بيت للعشق مسجداً كان أم كنيسةً".

والعشق موهبة وصلت الإنسان من ميراث الفطرة:

می خور كه عاشقی نه به كسب است و اختيـــار
ايـــن موهبـــت رسيد ز ميراث فطـــرتم

أي: "اشرب المدام، (والمدام، كما ذكرنا، ترمز إلى نكران الذات) فالعشق ليس بالكسب والاختيار / هذه موهبة وصلتني مـــن ميراث فطرتـــي".

والعاشق العارف لم يتعلم سوى عشق جمال الحبيب:

نيست بر لوح دلم جز الف قامت دوست
چه كنم حـــــرف دگـــــر ياد نداد اســـتادم

أي: "ليس على لوح قلبي سوى ألف قامة الحبيب / ماذا أفعل إذ لم يعلمني أستاذي غير ذلك".
والعشق هو الحياة وليس سواه إلا الموت، ويُفتي حافظ بأداء صلاة الميت على من خلا قلبـــه مـــن العشق:

هر آن كسى كه درين حلقه نيست زنده به عشق
بـــر او نمرده به فتوايِ من نماز كنيـــــد

أي:

"كل من لم يكن في هذه الحلقة حياً بالعشق/ أقيموا عليه بفتواي صلاة الميت وهو حيّ".

البلبل والوردة

كل الكون يتحرك بالعشق، والعلاقات بين الكائنات هي علاقة عاشق ومعشوق، وإلى هذه الحقيقة يرمز حافظ في حديثه عن علاقة البلبل بالزهرة. فالبلبل يُنشد متغزلاً حين يبهره جمال الوردة:

بُلبل ازفيض گـــُل آموخت سُخن ورنه نبود
اين همه قـــــول وغزل تعبيه در منقـــارش

أي:

"البلبل تعلم الكلام من فيض جمال الوردة وإلا /ما كان كلّ هذا الكلام والغزل معبّأ في منقاره".
والبلبل في تغريدة يُنشد ترانيم روحيّة يدعو فيها إلى الإمعان في جمال الوردة وماتشعّه من نور هـــو ذاته ما رآه موسى (ع) من نار في طور سيناء، لتقرأ أنت في هذا الجمال درس التوحيد:

بلبل زشاخ سرو به گلبانك پهلـــــــــوى
مى خواند دوش درس مقامات معنـــــوى

يعنى بيا كـــــه آتش موســـــى نمود گل
تـــــــا از درخت نكتـــــه توحيد بشنوى

أي: "البلبل من غصن شجرة السرو باللحن البهلوي/ ينشد أمس دروساً في المنازل المعنوية/ تعال فقد أبرز الورد نار موسى لتسمع من الشجرة ترانيم التوحيد".

فالجمال يبعث في النفس ذلك العشق الذي يكسر صنم الذات ويجعل الإنسان يطلب الكمال المطلق وهو الله تعالى.

هذه هي الطبيعة الأبدية للوردة أن تشعّ بحسنها، وهذه هي طبيعة البلبل أن يكون قرين العشق: الطبيعة الأبدية للوردة

گل یار حُسن گشته وبلبل قرین عشق

این را تغیّری نه وآن را تبدّلی

أي: " أصبح الورد قرين الحسن والبلبل قرين العشق/فليس في هذا تغيّر ولا في ذلك تبدّل".

يقظة الشعور عند الشابي

بنفس لغة سعدي وحافظ تحدّث أبو القاسم الشابي، ولكن بخطاب القرن العشرين، ونقف عند بعض محطات إيقاظ الشعور عند شاعر العشق والنهضة التونسي:

تونس والشابي

تونس مؤهلة بما فيها من جمال طبيعي خلاّب أن توقظ الحسّ الجمالي في الإنسان، لكنّ المهمّ أنّ الشابي عاش فترة النهضة في النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٩-١٩٣٤)، وهي الفترة التي أعقبت النهضة التي فجّرها السيد جمال الدين الأسدآبادي المعروف بالأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) في العالم الإسلامي بشكل عام وفي مصر بصورة خاصة.

لقد وصلت موجة الأفغاني إلى تونس على يد محمدعبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، وكان والد الشابي هو "المثقف التونسي الوحيد الذي تتلمذ على الامام محمد عبده مباشرة في الجامعة الازهرية بالقاهرة، حيث هاجر خصيصاً لهذه الغاية"(كرو، ١٩٩٩، ص ١٠) .

زارمحمد عبده تونس مرتين كانت الثانية عام ١٩٠٣ "وكانت له ولجمعية (العروة الوثقى) علاقات قوية مع رجال الإصلاح والتنوير التونسيين. الذين تتلمذ الشابي على عدد منهم، وأبرزهم العلامة

الإمام محمد الطاهر بن عاشور" (نفس المصدر، ص ١٠).

كل هذه كانت حوافز لتوجّه شاعرنا العاشق إلى نهضة قائمة على أساس الإسلام، وزاد من لوعة العشق في نفسه أنه حساس ورقيق النفس: (ديوان، ١٩٩٩، ص ١٠٤)

والشقي الشقي من كان مثلي

في حساسيتي ورقّة نفسي

وهذا الشقاء الذي يذكره الشابي ليس هو شقاء الأنانيين الذين يشقون في سبيل الأغراض المادية الصغيرة، وإنّما هو شقاء الإنسان الذي يشعر بثقل الأمانة الكبرى بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها.

لقد انتمي الشابي إلى مدرسة العشق بما يميزه من في تغنيه بالحب والجمال و انتمائه إلى اليقظة الإسلامية عملاً وأدباً، بل إن الشابي على الرغم من الشوط القصير لحياته (٢٦ سنة) يعتبر من رواد النهضة الإسلامية المعاصرة.

يعبّر شاعرنا عن تفاؤله بمستقبل الصحوة الإسلامية في زمانه وتعاطفه معها وابتهاجه بمشاريعها فيقول:

"وفي تونس اليوم نشاهد من آثار هذه اليقظة الإسلامية المباركة غراساً زاكياً، نتعشّم (نطمح) فيه خيراً كثيراً، ونرجو أن يؤتي أكُله بعد حين.. وأدعو الأمة التونسية الناهضة لتلبية هذا الصوت الإلهي الذي يتردّد في قلوب المسلمين في جميع نواحي العالم" (كرو، ١٩٩٩، صص٨٢-٨٣) .

العشق والنهضة على لسان الشابي

يفرّق الشابي بين ما مصدره الشعور وما مصدره الصنعة، وهذا يصدق في الشاعر:

"تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهي نبيل يسمو بنفسك إلى آفاق الحقّ والفنّ والجمال، ويجعل منك كتلة من شعور قدسي مشبوب. وتسمع إلى آخر فتري أنك تسمع إلى حديث ساذج بسيط لا يميزه عن أحاديث الناس العادية إلاّ رنة النغم وتواتر القوافي وجمال التعبير، وتسمع إلى غيره فتخال أنك تُجلَد بالسياط أو تساق إلى الموت على وجهك"(همان، ص ٩٣) .

يلاحظ أن الشاعر الأول الذي يذكره الشابي هو العاشق الحقيقي الذي يسمو إلى آفاق الكون الفسيح، ويدعو مخاطبيه إلى هذا السمو بمقدار قدرتهم على التحرر والدخول في التجربة الشعورية

للشاعر. أما الثاني فقد استشعر شيئاً من الجمال، لكنه لامَسَ ظاهره و لم يتوغل في أعماقه، أما الثالث فهو الذي يصدر شعره عن روح ميتة مغروسة في أوحال الذاتية، لم يستشعر جمالاً، و لم تدخل قلبَه حرقةٌ أو لهب.

ومثل الشاعر الموسيقار الموهوب الذي "يثير وجدانك ويهزّ عواطف قلبك ويُذكي خيالك إلى أقصى مداه حتى تكاد تستحيل شعلة متوهجة من خيال وذكريات وأحلام" ولكن تجد آخر لا تشعر من موسيقاه سوى حلاوة في الصوت وجمال في المقاطع، ثم هناك من تصغي اليه "فيكاد التثاؤب ينيمك والضجر يقضي عليك".

وبمثل هذا التقسيم ينظر الشابي إلى الشعوب فيرى أن شعباً من "شعوب الأرض، يجدّ ويكدح وينتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها، فإذا له حياته الأدبية الناضجة وحياته العلمية الراقية وحياته العادية المهذبة ومشاعره الطامحة إلى ماهو أجلّ من ذلك وأسمى، إلى المثل الأعلى المحجب في ظلام المجهول.

وهذا شعب آخر، منصرف إلى التبطل، والفراغ، مُخلد إلى الكسل والخمول، لا يعمل، ولا ينتج، ولا يجود على الانسانية بخير، ليس له فن ولا علم، ولا أدب ولا طموح، بل ولا حياة... أيضاً، إلا كما تحيا ماشية الحقل وآبدة الجبل...".

بعد هذا التفريق بين شاعر وشاعر، وموسيقي وموسيقي، وشعب وشعب، يرى الشابي أن الفرق في كل ذلك يعود إلى "يقظة الإحساس".

وهذا هو الذي يميّز كبار الشعراء والفنانين والشعوب عن غيرها بما في ذلك الأمة الإسلامية التي "كانت بالأمس رائد العالم ورسول المدنية والنور، حين كانت روحها مستيقظة ناهضة، وإحساسها مضطرماً مشبوباً. ثم أمست في آخر القافلة الإنسانية نائمة تلوك أحلام الماضي، تبلّد إحساسها وفقدت شعورها بنفسها وبالحياة. ثم هاهي اليوم تحاول النهوض واليقظة ثانية لأن روحها قد أخذت تستيقظ من جديد" (همان، ص ۹۶).

وفي عبارة أكثر صراحة ووضوحاً يذكر الشابي الارتباط بين ازدهار الآداب والفنون التي هي التعبير الفني للعاشقين وبين الثورة التي هي التعبير العملي للعاشقين.

يقول: "ثم إن هناك ظاهرة قد تكون لأول وهلة غريبة ومثاراً للحيرة والتساؤل وهي أن الآداب والفنون، كثيراً ما تزدهر في عصور الثورات والانقلابات وبين الجماجم المنثورة والدماء الجارية. بل وربما كانت أحياناً أبهى منظراً وأعبق شذى وأنطق بمعاني الحياة من آداب الراحة والأمن والسلام وفنونها. أما أنا فلا أراها غريبة ولا مدهشة، بل أراها نتيجة منطقية ومعقولة لنفسية الأمة الجائشة، لأن

الثورات لا تحدث إلا والنفوس أكثر إحساساً بالحياة وملل من الحاضر، وشوق إلى المستقبل، وطموح إلى المجهول... وتلك هي يقظة الإحساس بمعناها الشامل العميق. وإن شعباً يكون مستيقظ المشاعر متسع جوانب الحياة، لجدير بأن يستخرج خير ما في الطبيعة من فن وحق، وإن فناً يكون مصدره تلك اليقظة الروحية العميقة التي سميناها "يقظة الإحساس" لهو الفن الحي في صميمه، الفن الذي لا ينصرف إلى القشور ولا يقنع بما دون اللباب".

ويلاحظ في النص تعابير: الثورة، والحياة، والنفسية، الجائشة، والملل من الحاضر، والطموح إلى المجهول، ويقظة الاحساس،والعطش الروحي، وروح الحياة المنتجة، ونيران النبوغ. وكل هذه التعابير معالم للمنظومة الفكرية والحضارية للشابي التي ترى الثورة أو النهضة والعشق ينطلقان من نبع واحد هو تحرر الشعور من القيود التي تكبّله والقشور التي تغطّي على رؤيته الواقعية.

وقفات مع الشاعر العاشق

قصيدة "أيها الحبّ"(الشابي، ١٩٩٩، ص٩٣) يخاطب الشاعر الحبّ على أنه: سر البلاء والهموم والروعة والعناء والنحول والدموع والعذاب والسقام واللوعة والشقاء:

أيها الحبّ! أنت سرّ بلائي
وهمومي، وروعتي، وعنائي

ونحولي، وأدمعي، وعذابي
وسقامي، ولوعتي، وشقائي

وهذا هو الخطاب العرفاني عن الحبّ، باعتباره عامل خروج الإنسان من همومه الصغيرة الذاتية إلى الهموم الكبيرة التي تنتج عن يقظة الشعور في هذا الكون.

والشاعر حين يتحدث عن آلام الحبّ وهمومه يعي قيمة الحبّ في وجود الانسان فهو: سرّ الوجود، والحياة، والعزّة، والإباء، والشعاع المضيء لظلمات الدهر، والأليف وقرّة العين، والرجاء:

أيها الحبّ! أنت سرّ وجودي
وحياتي، وعزّتي، وإبائي

وشعاعي مابين ديجور دهري
وأليفي، وقرّتي، ورجائي

ويعود الشاعر ليخاطب الحبَّ بأنه وراء كل ما يشعره من سقام وهناء ويتساءل أهو "لهيبٌ" يثور في روضة النفس (وارتباط اللهيب بروضة النفس هو ارتباط شعلة الشعور في بستان الجمال)، أم هو نور السماء، ونور السماء يعني هنا المعنى الغيبي لتأثير الجمال في النفس:

يا سلافَ الفؤاد! يا سُم نفسي
في حياتي يا شدّتي! يا رخائي!
ألهيبٌ يثور في روضة النفس،
فيطغى، أم أنت نور السماء؟

ويبدو أن مشاعر الحبّ تثور في نفس الشاعر فتدفع به نحو غايات لا متناهية. وبلفتة رائعة يُقسمُ علي الحبّ بالجمال، أي إن الحبّ يقدّس الجمال، ويطلب منه أن يهوّن عليه أثقال مشاعره:

أيها الحبّ قد جرعت بك الحزنَ
كؤوساً، وما اقتنصت ابتغائي
فبحقّ الجمال، يا أيها الحبُّ
حنانيك بي! وهوّن بلائي

ثم يختتم أنشودته بالإشارة إلى حيرته في مصدر هذا الحبّ أهو نزعة الطين المظلمة أم روح ربّ العالمين المضيئة المشرقة، فالأولى نزعة غريزية هابطة، والثانية ترفع الإنسان وتسمو به وتبارك له العمر وتزكّيه:

ليت شعري! يا أيها الحبّ، قل لي:
من ظلام خُلِقتَ أم من ضياء؟

قصيدة : الجمال المنشود: همان، ص ۱۳۴)

في هذه القصيدة يحوم الشاعر حول الجمال ليتعرّف كنهه، ويتعرّف سرّ انجذاب الإنسان نحو الجمال:

يا عذارى الجمال، والحبّ، والأحلام
بل يا بهاءَ هذا الوجود

قـــد رأينـــا الـــشعور منـــسدلات
كلّلـــت حـــسنَها صـــباحُ الـــورود
ورأينـــا الجفـــون تبـــسمُ.. أو تحلُـــمُ
بـــالنور، بـــالهوى، بالنـــشيد
ورأينا الخدودَ، ضرّجَهـــا الـــسحـــرُ
فآهاً من سحر تلـك الخـــــدود

ويتابع ذكر مظاهر الجمال في هذه العذاري التي هي بأجمعها "فتنة، توقظ الغرام وتذكية"، فمـاذا خلف هذه المظاهر التي توقظ الشعور بالعشق في نفس الانسان:

ماالذي خلفَ سحرها الحالم الـسكران
في ذلـــك القـــرار البعيـــد؟
أنفـــوسٌ جميلـــةٌ، كطيـــور الغـــاب
تـــشدو بـــساحر التغريـــد
طـــاهرات، كأنهـــا أرَجُ الأزهـــار
في مولـــد الربيـــع الجديـــد؟
وقلوبٌ مضيئة، كنجـــوم الليـــل
ضـــوّاعةٌ، كغـــضّ الورود؟

هل فتنة الجمال في المرأة هي جزء من افتتان النفوس الجميلة بالجمال في الكون.. في شدو الطيور، وأرج الأزهار؟ وهل هي جزء من فتنة القلوب المضيئة مثل نجوم الليل وغضّ الورود؟

أم ظـــلام كأنـــه قطـــع الليـــل
وهـــولٌ يُـــشيبُ قلـــبَ الوليـــد
وخضـــمّ يـــموجُ بالإثـــم والنكر
والشـــرّ والضـــلال المـــديـــد؟

هذا التساؤل وقبله يمكن أن تعبّر عنه بأسلوب الفهم القرآني للإنسان كما ذكرنا على النحو التالي: هل فتنة الجمال بالمرأة تنطلق من نفخة روح رب العالمين أم من نزعة الطين؟ وقد ذكرنا من قبـل أن العشق الحقيقي هو التروع إلى الجمال، ولا يمكن أن يكون الإنسان عاشقاً إلاّ إذا تحرر مـن أغـلال الطين.

ويخاطب المرأة متمنياً لها أن لا تدخل عالَم ظلمات الروح التي تحوّل العشق الحقيقي إلى "ليل مريع":

صانكنّ الإله من ظلمة الروح
ومن ضلّة الضمير المريد
إن ليلَ النفوس ليلٌ مريعٌ
سرمديّ الأسى شنيعُ الخلود
يرزحُ القلبُ فيه بالألم المرّ
ويشقى بعيشه المنكود

ويعتصر الشابي تجربته في فهم الجمال ببيت يختتم به قصيدته يقول:

غير باق في الكون إلاّ جمالُ
الروح غضّاً على الزمان الأبيد

وقفات مع الشاعر الثائر

ثورة الشاعر تعني كما ذكرنا اهتمامه باستنهاض شعبه وإنقاذه من حالة الركود والخمود، لأنه يؤمن بأن نهضة الأمة تبدأ بنهضة الشعور و ديوان الشابي مفعم بروح الاستنهاض في قصائد عديدة، من تلك:

قصيدة النبي المجهول:(همان، ص ١٢٤)

في هذه القصيدة يرى أن مسؤولية الشاعر والمفكّر أن يخلّص شعبه من الجهل والغباء والسكون والارتخاء.

ويبدأها بأسلوب عنيف إذ يقول:

أيها الشعبُ! ليتني كنتُ حطّا
باً فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سا
لت تهدّ القبور: رمساً برَمس

ليتني كنـــت كالـــرياح فـــأطـــوي
كـــلّ مـــا يخفـــق الزهور بنحس

ويستمر في تمنّيه أن تكون له قوّة التغيير الحاسم السريع ثم يذكر سبب هذه الثورة:

أنـــــتَ روحٌ غبيّة تكـــزه النور
وتقضـــي الدهورَ فـــي ليل مَلس

ليُسمعَ الطيور صوته، فإنها تفهم مايقول:

سوفَ أتلو علـى الطيـور أناشـيدي
وأفـضي لهـا بأشـواق نفـسي
فهي تدري معنـى الحياة، وتـدري
أنّ مجدَ النفـوس يقظـةُ حسّ

وليس هذا بيأس حقيقي، بل تظاهرٌ باليأس يبتغي منه الاستنهاض وزيادة التأثير.

إرادة الحياة (همان، ص ١٩٩)

وهي أشهر قصائده الاستنهاضية، وأكثرها شيوعاً في العالم العربي والإسلامي. وفيها إشـارات إلى سنن الكون والحياة، وأنّ قَدَرَ الإنسان هو ما تصنعه إرادته، وأن الأشواق المضطرمة في نفس الإنـسان نحو الحياة هي التي تحافظ على وجوده. وشوق الحياة هو الشوق إلى الجمـال والكمـال والتطـوير والسمّو:

إذا الـــشعب يومـــاً أراد الحيـــاة
فـــلا بُـــدّ أن يـــستجيب القـــدرْ
ولابـــدّ لليـــل أن ينجلـــي
ولا بُـــدّ للقيـــدِ أن ينكـــسرْ
ومَن لـم يعانقـــهُ شـــوق الحياة
تَبخّرَ فـي جوّهـــا واندَثَـــرْ

سنن الكون كلها تدعو إلى أن يتجه الإنسان نحو الغايات البعيدة والاّ ارتكز في ذاتيتـه وأنانيتـه وأهدافه الصغيرة:

ودمـــدمت الـــريحُ بـــين الفِجَـــاج

وفـــوق الجبـــال وتحـــت الـــشجر:

"إذا مـــــا طمحـــــتُ إلى غايـــــة

ركبـــتُ المـــنى ونـــسيتُ الحـــذَر..

ومـــن لا يحبّ صعـــود الجبـــــال

يَعِـــش أبـــــدَ الدهـــــر بين الحُفر"

وبأسلوب آخر يبين هذه الحقيقة حين يسأل الشاعر الأرض عمّن تحبّ وتكره:

وقالـــت لي الأرضُ لمـــا ســـألت:

"أيـــا أُمُّ هـــل تكـــرَهين البـــشر؟"

وتجيبه الأرض:

"أبـــارك في النـــاس أهـــلَ الطمـــوح

ومـــن يَـــستلذّ ركـــوبَ الخطـــر

وألعـــنُ مـــن لا يُماشـــي الزمـــان

ويقنـــع بـــالعيش عـــيشَ الحجَـــر

هـــو الكـــون حـــيٌّ يحـــبُّ الحيـــاةَ

ويَحتقَـــرُ المَيـــتَ مهمـــا كَبُـــرْ

فـــلا الأفـــقُ يحضُنُ ميتَ الطيور

ولا النحلُ يَلثِـــمُ ميتَ الزَّهَـــــرْ

والأرض هنا هي سنن الكون التي تحكم الحياة، وحديث الأرض هو حديث عن هـــذه الـــسنن، وحديث الربيع معها هو ارتباط هذه السنن بيقظة الإحساس، إذ يقول الربيع للأرض حين أعـــاد لهـــا الشباب:

وقـــال لهـــا: قـــد مُنحـــتِ الحيـــاةَ

وخُلِّـــدتَ في نَـــسلِكِ الـــمُدّخَر

وبارَكَـــكِ النـــورُ فاســـتَقبلي
شـــبابَ الحيـــاة وخِـــصبَ العُمُـــرْ
ومـــن تعبـــدُ النورَ أحلامُـــهُ
يـــبارِكُـــهُ النـــورُ أنّـــى ظَهَر

وفي البيت الأخير إشارة إلى أن مشاعر الإنسان حين تتجه إلى السموّ في عالم النور، فتلك بركة الحياة.

ويختتم الشاعر قصيدته بالتأكيد على طموح النفوس للحياة وأنها أساس كل تغيير في الإنسان والمجموعة الإنسانية:

إذا طمَـــحَتْ للحيـــاة النفوسُ
فلا بُدَّ أن يَستـــجيـــبَ القَدَر

فكرة الفنان:(همان، ص ١٥٨)

هذه قصيدة على غاية من الأهمية في بيان فكرة الشابي عن الشعور ودوره في الحياة. فالشعور كما ذكرنا مصدر تحسّس الجمال ومصدر دفع الانسان في مسيرته التكاملية يقول:

عـــش بالـــشعور، وللـــشعور، فإنمـــا
دنيـــاك كـــونُ عواطـــف وشـــعور
شِيدَت على العطف العميـــق، وإنّهـــا
لَتَجِفُّ لـــو شِـــيدَت علـــى الـــتفكير
وتظـــلّ جامـــدةَ الجمـــال، كئيبـــةً
كالهيكـــل المتهـــدّم المهجـــور
وتظـــلّ قاسيةَ المـــلامح جَهمَـــةً
كالمـــوت، مُقفِـــرةً، بغيـــر سُـــرور

يستمر الشاعر في بيان جفاف الحياة بدون الشعور، ويدعو إلى أن يكون الشعور قائداً للإنسان في الحياة:

واجعل شعورَك في الطبيعة قائداً
فهو الخبير بتيهها المسحورِ

صَحبَ الحياةَ صغيرةً ومشى بها
بين الجماجم والدَّمِ المهدور

وغدا بها فوق الشَّواهقِ باسماً
متغنياً من أعصُر ودهور

ويرى الشاعر أن دور العقل ضئيل في الحياة، ولا يستطيع أن يرتفع إلى أسرار هذا العالم رغم ما فيه من غرور:

والعقلُ رغمَ مشيبه ووقاره
مازال في الأيام جِدُّ صغير

يمشي فتصرعه الرياحُ، فينثني
متوجعاً كالطائر المكسور

ويظلّ يسأل نفسَه متفلسفاً
متنطِّساً في خفّة وغرور

عمّا تُحجّبُهُ الكواكبُ خَلفَها
من سرّ هذا العالم المستور

وهو المهشَّمُ بالعواصف.. يا لَهُ
من ساذج متفلسف مغرور

ويدعو إلى أن يعيشَ الإنسان "بقلب زاخر يقظ المشاعر حالم مسحور" عندئذ يدخل:

في نشوة صوفيّة قُدسيّة
هي خيرُ ما في العالَم المنظور

استنتاج

خلود الشاعر والأديب وصاحب الكلمة يتوقف على مدى قدرته أن يكون عاشقاً، وإذا أصبح عاشقاً كان استنهاضياً يثير أشواق الجمال والكمال والحركة في النفوس.

وهذا ما رأيناه عند سعدي وحافظ وعند أبي القاسم الشابي رغم مابين الشيرازيين والشابي من فواصل زمانية وقومية..

هذه الظاهرة تدعونا إلى أن نفهم عظمة ما عندنا من تراث إنساني يجب أن نبلوره ونقدمه بخطاب العصر وبكل اللغات الحيّة إلى شعوب العالم، لنضيء شمعة في هذه الدنيا التي ملأها الأطماع المادية بالظلام والدماء والدموع.

الهوامش:

١- بين آونة وأخرى دع جسمي يسترحْ.
٢ - نحن لمسكنتنا ألقينا السلاح.
٣- العشق والستر لا يجتمعان.
٤- إن شئت أن تعدل الآن أو تجور. كليات إقبال، ص ٣٧٧.

المصادر

١- آذرشب، محمدعلي، (١٣٨٣ش١٤٢٥هـ) نهج العاشقين وقفة عند الشيرازيين سعدي و حافظ، مؤسسة الهدي للنشر و التوزيع.
٢- خرمشاهي، بهاءالدين (١٣٦٧ش/١٩٨٨م) حافظ نامه، تهران، شركت انتشارات علمي و فرهنگي و انتشارات سروش.
٣- ستارزاده، عصمت (١٣٧٢ش) شرح سودي بر حافظ، تهران، انتشارات زرين و انتشارات نگاه.
٤- سعدي الشيرازي، (١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م) روضة الورد، ترجمة محمدالفراتي، تهران، المشرق للثقافة و النشر.
٥- الشابي، ابوالقاسم (١٩٩٩م) ديوان اغاني الحياة، بيروت، دارصادر.
٦- ــــــــــــ، (١٩٩٩م) ديوان، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
٧- الشواربي، ابراهيم امين (١٩٨٩م) حافظ الشيرازي، شاعر الغزل و الغناء في ايران، بيروت، دارالروضة.
٨- فروغي، محمدعلي و اقبال آشتياني عباس (١٣٧٠ش) كليات سعدي، تهران، انتشارات فروغي
٩- قطب، سيد(١٤١٠/هـ/١٩٩٠م) النقد الادبي، اصوله و مفاهجه، القاهره و بيروت.
١٠- كرو، ابوالقاسم، (١٩٩٩م) مقدمة نثر الشابي، بيروت، دارصادر.
١١- النقاش رجاء (١٩٧٧م) ابوالقاسم الشابي، شاعر الحب و الثورة، بيروت، دارالقلم.
١٢- الهنداوي، رضا (١٩٨١م) سعدي الشيرازي، بيروت، دارصادر.

بیداری احساس در آثار حافظ، سعدی و شابی

دکتر محمدعلی آذرشب
استاد دانشگاه تهران

چکیده

به طور خلاصه، احساس، نیرویی است که انسان را از قید و بندهای حیوانی رها کرده، منزلت او را بالا می‌برد تا مراحل تکامل را آنگونه که شایستهٔ اوست، طی کند.

تمام مصلحان، سخنوران، هنرمندان و شعرا از این جهت جاودانه مانده‌اند که آهنگ بیداری احساس را نواخته‌اند. هر چه احساس افراد قوی‌تر بوده، تأثیر آنها در پیدا کردن مخاطبان، بیشتر و جاودانگی کلام و آثار آنها نیز پایدارتر بوده است. شعرا از این جهت که کلام موزون دارای موسیقی را در اشعار خود به کار می‌برند، قادرترین مردم برای بیدار کردن احساس هستند.

شعرای برجسته در سایهٔ احساسات شورانگیزی که در درون آنها شعله‌ور است و کلمات را به نغمه‌ای دلنواز و عبارتهای فصیح تبدیل می‌سازد، بیشترین تأثیر را بر روی مخاطبان دارند. بنابراین قدرت شعر، در قدیم یا جدید بودن یا زبان خاص آنها نیست، بلکه در گرمی و حرارت شعله‌هایی است که ایجاد می‌کند.

این مقاله به بررسی تأثیر کلام شعرای قدیم فارسی از جمله حافظ و سعدی و شاعر معاصر عربی ابوالقاسم الشابی می‌پردازد. چرا که با وجود فاصلهٔ زمانی و مکانی بین دو شاعر شیرازی و شابی هر سه با یک زبان سخن گفته‌اند، یعنی زبان بیداری احساس.

کلیدواژه‌ها: بیداری احساس، حافظ، سعدی، شابی.

Awakening Emotion in the Works of Hafiz, Saadi an Shabi

Mohammad Ali Azarshab(Ph.D)
Tehran University

Abstract:

Basically, emotion is a power that releases man from all shackles of carnality and promotes him to gain the dignity he deserves. This is what has made all pioneers, orators and artists eternal. The more the emotion, the longer and heavier the effect and eternality of their speech. Due to the application of musical words, poets were the most capable person to flame up such emotion. The outstanding poets make the words pleasant and the phrase eloquent to have maximum effect on their readers. Thus, their power does not depend on their specific language they use whether old or new, rather it is due to their creation of fervent flame in their readers.

This article attempts to study the effect of old Persian poets such as Hafiz and Saadi and compare them to Abolqasem-al-Shabi, the arbic poet, despite the gap of time and place among them, all the three poets tended to apply one language i.e to awaken emotion.

Keywords: *awakening emotion, Hafiz, Saadi, Shabi*